انتشار السكان وفلسفة فهم المكان

"دراسة تحليلية في جغرافية السكان"

Population Dispersion and the Philosophy of Understanding Place: An Analytical Study in Population Geography

إعداد

أ.م.د/ محمد نوح محمود عدو

Dr. Mohamed Nouh Mahmoud Adoo

جامعة كركوك / كلية الاداب

Doi: 10.21608/jasg.2025.443043

استلام البحث : ١٧ / ٤ / ٢٠٢٥

قبـــول النشر: ٥ / ٦ /٢٠٢٥

عدو، محمد نوح محمود (٢٠٢٥). انتشار السكان وفلسفة فهم المكان "دراسة تحليلية في جغرافية السكان". ***المجلة العربية للدراسات الجغرافية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٨(٢٤) ، ٦٥ - ٨٠.

https://jasg.journals.ekb.eg

انتشار السكان وفلسفة فهم المكان "دراسة تحليلية في جغرافية السكان"

المستخلص:

هدف البحث دراسة ظاهرة انتشار السكان من زاوية فلسفية مكانية، محاولًا تجاوز التفسير الكلاسيكي الذي يربط التوزيع السكاني فقط بالعوامل البيئية والاقتصادية، لفهم أعمق يُبرز الدور الذي يلعبه إدراك الإنسان للمكان في اتخاذ قرار الاستقرار أو الهجرة. ينطلق البحث من فرضية أساسية مفادها أن الإنسان لا يختار المكان عشوائيًا بل بناءً على فهم مركب لطبيعته، وإمكاناته، ورمزيته، وتاريخه، ومدى توافقه مع منظومته الثقافية والاجتماعية. يركز البحث على تحليل العلاقة الجدلية بين "المكان" كمفهوم جغرافي، و"الفهم" كآلية عقلية وثقافية توجه سلوك الإنسان السكاني، حيث يُظهر انتشار السكان ارتباطه بدرجة تقدير الإنسان للمكان وتفسيره له كملاذ صالح للعيش، وليس فقط كموقع جغرافي مناسب, وقد توصل البحث إلى أن العوامل الجغرافية (كالبيئة، الماء، المناخ، الموقع) لا تعمل بمعزل عن الوعي البشري، بل إن تأثيرها يتفاوت حسب فهم السكان لها وإدراكهم لفرصها أو تهديداتها, كما بيّن أن بعض المناطق تشهد "فراغًا سكانيًا" لا بسبب قسوتها الطبيعية فقط، بل بسبب قصور في فهمها أو ضعف في إدماجها ضمن التصورات الاجتماعية السائدة. اعتمد البحث المنهج السلوكي، مدعومًا بإطار نظري من الفكر الجغرافي والفلسفي، وبالاستعانة بدراسات حالة مختارة لتوضيح كيف يؤثر الفهم البشري للمكان في رسم خريطة الانتشار السكاني. ويُعد هذا البحث مساهمة في توسيع أفق الدراسات السكانية، من خلال دمج الفلسفة الجغرافية في تفسير السلوك السكاني، وفتح المجال أمام مقاربات جديدة لقراءة العلاقة بين السكان والمكان .

الكلمات المفتاحية: التشظي السكاني, معنى المكان, افضلية الاماكن, الادراك المكاني.

Abstract:

The research aims to study the phenomenon of population distribution from a philosophical and spatial perspective, attempting to move beyond the classical interpretation that links population distribution solely to environmental and economic factors. It seeks a deeper understanding that highlights the role of human perception of place in decisions related to settlement or migration, The study is based on a core hypothesis that humans do not choose locations randomly, but rather based on a complex understanding of the place's nature, potential, symbolism, history, and its compatibility with their cultural and social system .The research focuses on analyzing the dialectical relationship between "place" as a geographic concept and

ISSN: 2537-0839 *eISSN : 2537-088X*

"understanding" as a mental and cultural mechanism that guides human settlement behavior. It reveals that population spread is closely linked to how individuals value and interpret a place as a viable habitat, not merely as a suitable geographic location, The study concludes that geographic factors (such as environment, water, climate, and location) do not operate in isolation from human awareness; rather, their impact varies depending on how populations perceive them and interpret their opportunities or threats. It also shows that certain regions experience "population voids" not only due to harsh natural conditions but also due to limited understanding or the failure to integrate these areas into prevailing social perceptions, The research adopts the behavioral approach, supported by a theoretical framework that combines geographic and philosophical thought, along with selected case studies to illustrate how human understanding of place shapes patterns of population distribution, This study is a contribution to expanding the horizon of population studies by integrating geographic philosophy into the interpretation of population behavior, and by opening the door to new approaches for analyzing the relationship between people and place.

Keywords: Population Fragmentation, Meaning of Place, Spatial Preference , Spatial Perception.

المقدمة

لطالما شكّل "المكان" في الفكر الجغرافي إطاراً مرجعياً لفهم الظواهر الإنسانية والطبيعية على حد سواء، غير أن ما غاب كثيراً عن التناول الأكاديمي التقليدي هو السؤال الفلسفي العميق لماذا يختار الإنسان مكاناً دون غيره, وإذا كان علم جغرافية السكان قد اعتنى بدراسة التوزيع والخصائص والحركات السكانية بوصفها مؤشرات كمية، فإن هذا البحث يتجه إلى إعادة قراءة الظاهرة السكانية من زاوية فلسفية، تسلط الضوء على طبيعة العلاقة المركبة بين السكان والمكان، ليس فقط من حيث الاستغلال والاستقرار، بل من حيث الفهم والتأويل والتفاعل الرمزي. إن انتشار السكان على سطح الأرض لا يُعد مجرد عملية فيزيائية أو استجابة آلية للعوامل الطبيعية، بل هو انعكاس لمجموعة من القراءات التي

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

يُجريها السكان على المكان، بما يحمله من إمكانات، وما يرمز إليه من معانٍ تاريخية وثقافية واقتصادية, فالكثافة السكانية في منطقة ما لا تعني فقط توافر مقومات العيش، بل تعني أيضاً أن الإنسان قد وجد في ذلك الموضع ما يستحق البقاء، سواء من حيث الأمن، أو الشعور بالانتماء، أو الفرص، أو استمرارية التاريخ.

من هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى استجلاء المنظور الفلسفي لفهم انتشار السكان، باعتباره فعلاً واعياً، مقصوداً، ومبنياً على إدراك عميق لقيمة المكان, ذلك أن كل موضع جغرافي في نظر الإنسان يمر عبر مرشّح ذهني, ثقافي, اجتماعي, قبل أن يُحكم عليه بالصلاحية أو بعدمها، وبالتالي فإن الأنماط السكانية الكبرى ما هي إلا خريطة للفهم الجمعي للمكان, ويبرز في هذا السياق دور مجموعة من العوامل الجغرافية المتداخلة التي تسهم في تشكيل "فلسفة المكان"، بدءاً من الماء والتربة والمناخ، مروراً بالموقع والمسافة والبنية التحتية، ووصولاً إلى عوامل أكثر تعقيداً كالهوية، والرمزية، والانتماء، والاستقرار السياسي، ومن هنا فإن الانتشار السكاني وإن بدا للوهلة الأولى ظاهرة مادية إلا أنه محكوم بتصورات عميقة حول المكان، وهذه التصورات تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات والأزمنة.

لقد أدرك الجغرافيون الكلاسيكيون مثل راتزل وهنتنغتون أهمية العامل الطبيعي في التأثير على الانتشار السكاني، ولكن الفكر الجغرافي الحديث خصوصاً مع طروحات هنري لوفيفر وديفيد هارفي تجاوز التفسير الحتمي نحو مقاربة أكثر شمولاً ترى أن الإنسان يصنع الفضاء بقدر ما يتأثر به، وأن للمكان روحاً وتاريخاً وثقافة تُدرك وتُفهم قبل أن تُستغل (حميدة، ١٩٨٥، صفحة ١٣).

لذلك فإن الغاية من هذا البحث ليست وصف أنماط الكثافة أو خريطة التوزيع السكاني، بل الوقوف على "منطق الانتشار"، وتحليل الفهم السكاني الذي يقف خلف ذلك الانتشار، واستكشاف ما إذا كانت هناك فلسفة خفية تحكم هذا الوجود الإنساني المكاني، وكيف تؤثر هذه الفلسفة في القرارات السكانية الكبرى من التوطن والاستقرار أو الهجرة والنزوح, إن هذا التوجه في دراسة جغرافية السكان يُسهم في إغناء الفهم الجغرافي المعاصر، ويعيد الاعتبار للمكان ليس فقط كحاوية للوجود البشري، بل كفاعل في تشكيله وإعادة إنتاجه.

أولاً: مشكلة البحث:

تنبع مشكلة هذا البحث في الكشف عن الفجوة المعرفية بين التفسير الكمي والتفسير الفلسفي لظاهرة الانتشار السكاني، ومحاولة بناء تصور تحليلي تكاملي يُعيد للمكان حضوره المفاهيمي بوصفه كيانًا مركبًا, من خلال الأسئلة الجوهرية المطروحة لماذا يختار الإنسان مكاناً دون غيره؟ ما الذي يجعل كثافة السكان ترتفع هنا وتنخفض هناك؟ وهذه الاسئلة بحاجة

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

إلى إجابات تتجاوز المؤشرات الرقمية، لتتعمق في التفسير السلوكي والثقافي والجغرافي لانتشار السكان

ثانياً: فرضية البحث:- ينطلق هذا البحث من فرضية أساسية مفادها أن:
الانتشار السكاني ليس فعلاً عشوائياً، بل هو انعكاس لفهم الإنسان للمكان ضمن إطار من العوامل البيئية والثقافية والاقتصادية التي تُشكّل قراره في الاستقرار أو الانتقال.

ثالثاً: هدف البحث:- يهدف البحث إلى تقديم تحليل فلسفي لعلاقة السكان بالمكان من خلال تفسير أنماط الانتشار والكثافة السكانية بوصفها تعبيرًا عن وعي جمعي بأفضلية المكان، مع دراسة أثر التقنيات الجغرافية والذكاء الاصطناعي في إعادة فهم هذه العلاقة، بالإضافة إلى تحليل التحول المكاني للمهاجرين بوصفه أحد تعبيرات إعادة إنتاج الفضاء السكاني.

رابعاً: منهجية البحث:- اعتمد البحث على المنهج السلوكي الذي يربط النتائج المكانية بالسلوك البشري المدفوع بعمليات ذهنية داخلية, يستند هذا المنهج إلى مبدأ المثير والاستجابة، حيث يتفاعل الإنسان مع البيئة ويتخذ قرارات تؤدي إلى أنماط مكانية محددة, وقد تبنته الجغرافيا من علم النفس لفهم كيفية إدراك الأفراد للمكان وسلوكهم تجاهه, ويقوم على مبدأين: أن السلوك البشري ينظم المجتمعات، وأن هناك تسلسلًا منتظمًا في تعامل الإنسان مع المكان لتشكيله وتنظيمه.

خامساً: الخلاصة التمهيدية للمقدمة

يتضح من خلال الطرح الأولي أن الانتشار المكاني للسكان يعكس تفاعلاً عميقاً بين السكان وخصائص المكان، ما يستدعي تجاوز القراءات الكمية نحو قراءة فلسفية – مكانية تؤسس لفهم معمق لجغرافية السكان كعلم إنساني بامتياز.

١- تطور المفاهيم ضمن فلسفة فهم المكان وعلاقتها بانتشار السكان

أن انتشار السكان يتبع أنماطاً فلسفية ثقافية بقدر ما هي بيئية واقتصادية, فالإنسان لا يعيش فقط حيث توجد الموارد، بل حيث "يشعر بالأمان والهوية والانتماء" فجغرافية السكان لا تدرس توزيع السكان، نموهم، خصائصهم، وأنماط تحركاتهم فقط, ولا تكتفي فقط بالوصف الكمي، بل تتجه نحو تحليل كيف يؤثر المكان في الإنسان، والعكس (زهران، ٢٠٠٣، صفحة ٣٥). فالمكان ليس مجرد حيّز فيزيائي، بل هو بنية اجتماعية معرفية تتشكل من خلال التجربة البشرية، وهذا ما أكده هنري لوفيفر في نظريته "إنتاج الفضاء". (Henri, 1991, p. 58) . وعلى هذا النحو لا يمكن ان نعرف جغرافية السكان بالمفهوم التقليدي وانما يجب الاخذ بعين الاعتبار الحداثة في ضوء الفلسفة المكانية, فحسب المفهوم التقليدي لجغرافية السكان باعتبارها أحد الفروع الأساسية في الجغرافيا البشرية، وهي تُعنى بدراسة توزيع السكان، نموهم، تركيبهم، وهجرتهم، والأنماط التي يتخذونها في التوطن داخل الحيز الجغرافي (سلطان و حسن، ٢٠٢٥، ٧٠-٧١).

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

لكن تطور تعريفها بتطور الفكر الجغرافي ذاته متحولًا من الرصد الكمي والإحصائي إلى التفسير المكاني والفلسفي لسلوك السكان واختياراتهم, فان قارنه تعريف (Clarke) في الرؤية التقليدية.

حيث كانت جغرافية السكان تُعرّف على أنها "دراسة الأعداد السكانية وتوزيعهم في المكان، وتحليل خصائصهم الديموغرافية (مثل العمر والنوع والنمو) باستخدام الأساليب الإحصائية والخرائط. (الحديثي، جغرافية السكان، ٢٠٠٠). فسنجد ان هذا التعريف يُركّز على وصف السكان كمتغير قابل للقياس، ويربط انتشارهم غالبًا بالعوامل الطبيعية كالبيئة والمناخ والتربة والماء.

أما في الفكر الجغرافي الحديث، فقد بدأ التركيز يتحول نحو فهم العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان، بحيث لا يُنظر إلى السكان كأرقام فقط، بل ككائنات واعية تُعيد إنتاج المكان وفقًا لفهمها وإدراكها وهويتها, وفي هذا الإطار تُعرّف جغرافية السكان بأنه علم يبحث في كيفيات إدراك الإنسان للمكان، واختياره له كمجال للعيش وفق تفاعلات ثقافية، اجتماعية، وبيئية، تؤدي إلى تشكيل أنماط مكانية معقدة تُعبّر عن فهم جمعي أو فردي للمكان (Gregory, 2009, 42) .

ويُضيف "ديفيد هارفي" (David Harvey) أحد أبرز الجغرافيين الفلاسفة أن الحيّز السكاني ليس مجرد نتيجة للعوامل الجغرافية، بل هو نتاج لعملية إدراكية ثقافية يرى من خلالها الإنسان المكان ويعيد تشكيله (David, 2000, p. 132) .

اذ فالمفهوم التقليدي لتعريف جغرافية السكان يُركّز على السكان كظاهرة رقمية متأثرة بالعوامل الطبيعية, اما المفهوم الحديث الفلسفي يُفسّر السكان كفاعلين يُنتجون المكان ويفهمونه عبر بُنى إدراكية وثقافية.

اما اختيارنا لمصطلح الانتشار السكاني لا التوزيع السكاني, كونه المصطلح الادق والاعمق دلاليًا فهو لا يقتصر على وصف الوضع الحالي لكيفية توزيع السكان في مساحة جغرافية معينة مثلاً ان نقول ٧٠% من السكان حضر و ٣٠% من سكان ريف, فالتوزيع هنا مصطلح احصائي وصفي, اما مصطلح الانتشار مصطلح ديناميكي يتضمن فلسفة التوزيع في المكان والعوامل المحفزة ويتضمن تحليل حركة السكان ودوافعهم وعلاقتهم بالمكان وتأثير الزمان والتطور على هذا الانتشار فهو مصطلح فلسفي تحليلي يرتبط بالإدراك والسلوك المكاني للسكان ويناسب الطابع المتقدم للبحث, رغم أن المصطلحين يُستخدمان أحيانًا بشكل متبادل في الكتابات العامة، إلا أن هناك فرقًا علميًا دقيقًا بينهما في الجغرافيا خاصة في التحليل المكاني وكما يأتي :-

أولاً: توزيع السكان (Population Distribution)

هو الوصف المكاني لكيفية تواجد السكان على سطح الأرض، أي ما إذا كانوا يتركزون في أماكن معينة (مثل المدن أو القرى) أو متفرقين في أماكن أخرى والتركيز هنا

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

يُعنى بتحديد مواقع التجمعات السكانية، وبمستويات الكثافة في كل منطقة, اما الجانب التحليلي فتوزيع السكان يُقاس غالبًا بـ"الكثافة السكانية"، ويُظهر أنماط التركز أو التشتت. مثال نقول "يتركز السكان على طول نهر دجلة"، أي هناك توزيع غير متساوٍ للسكان.

ثانيًا: انتشار السكان (Population Dispersion/Spread)

هو العملية أو الكيفية التي ينتقل بها السكان أو يتمددون في المكان بمرور الزمن، أي هو البعد الديناميكي لتوزيع السكان والتركيز يُعنى بالحركة، والانتقال، والتوسع الأفقي للسكان داخل المجال الجغرافي, اما الجانب التحليلي يشير إلى التحول في التوزيع (مثلاً من التركز إلى التشتت)، ويرتبط بالزمن والتغيرات الاجتماعية أو البيئية مثال نقول "انتشر السكان من المدينة إلى الضواحي"، أي أن هناك تغيرًا في نمط التوزيع بفعل عوامل اقتصادية أو سكانية.

٢- فلسفة فهم المكان وعلاقتها بانتشار السكان وكثافتهم

إن المكان في جغرافية السكان ليس مجرد إطار جغرافي محايد، بل هو كيان مركب يتداخل فيه البعد الفيزيائي مع البعد الإنساني الثقافي والسياسي والاقتصادي, تنطلق فلسفة فهم المكان من اعتبار أن العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة جدلية مستمرة، حيث يؤثر كل منهما في الآخر، ويعيد تشكيله بمرور الزمن, ومن هذا المنطلق، فإن دراسة انتشار السكان وكثافتهم لا يمكن فصلها عن فهم عميق لفلسفة المكان بوصفه حيزًا يحمل دلالات تتجاوز الجغرافيا الطبيعية, اذ يختار الإنسان أماكن عيشه وفق "أفضلية مكانية" تتشكل من عدة مستويات (Harvey, 1973, p. 265) وهى :

٢-١ . المستوى الطبيعي: توفر الماء، التربة، المناخ المعتدل.

٢-٢. المستوى الاقتصادي: وجود فرص عمل، طرق تجارة، موارد.

٢-٣. المستوى الاجتماعي والثقافي: شعور بالانتماء، رمزية المكان، اللغة والدين.

٢-٤. المستوى السياسي والأمني: الاستقرار، غياب التهديد، السيادة.

هذه المستويات تؤدي إلى نشوء أنماط انتشار وتكتل يختار فيها الإنسان المكان الذي "يفهمه" على أنه أصلح وأجدر بالعيش, فالانتشار السكاني يعبر عن طريقة تموضع السكان على سطح الأرض، وهو مرآة لتفضيلاتهم, اما الكثافة السكانية تعكس درجة الاستفادة من المكان أو الإحجام عنه (Smith, 1977, p. 5).

اذ ترتبط أنماط انتشار السكان مباشرة بفهمهم للمكان وقيمته فاختيار موقع السكن لا يعتمد فقط على توفر الموارد الطبيعية، بل يتأثر أيضًا بعوامل رمزية وثقافية، كالقرب من مواقع مقدسة، أو الانتماء العرقي، أو حتى التصورات التاريخية للمكان, وتشير دراسات جغرافية السكان إلى أن هناك ميلًا بشريًا مستمرًا لتكوين "أماكن مألوفة" ترتبط بالهوية والانتماء (Tuan, 1977, p. 4). اما الكثافة السكانية ليست فقط انعكاسًا لحجم السكان

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

مقارنة بالمساحة، بل تعكس أيضًا قدرة المكان على استيعاب النشاط البشري من منظور فلسفي، يمكن اعتبار الكثافة مقياسًا للتفاعل الاجتماعي والاقتصادي مع الحيز المكاني, فكلما زادت كثافة السكان زادت الحاجة إلى إعادة تنظيم المكان سواء عبر التخطيط الحضري أو عبر إعادة تأويل رمزي للمكان (Harvey, 2021, 7).

مثال مقارن فهم المكان وانتشار السكان في مصر والعراق, ففي مصر يُظهر التوزيع السكاني نموذجًا تقليديًا متمركزًا حول نهر النيل والدلتا, وهذا النمط يعكس فهمًا مكانيًا متجذرًا في الوعي التاريخي للمجتمع المصري، حيث يمثل نهر النيل ليس فقط مصدرًا للماء بل محورًا للهوية الثقافية والتاريخية الذي يتكرر عبر الزمن, اذ يعيش أكثر من ٩٥% من سكان مصر على أقل من ٥.٥% من المساحة الإجمالية، وهي المناطق الممتدة على ضفاف النيل والدلتا, يدل ذلك على فهم جمعي متوارث للمكان، باعتباره الحيز الذي يضمن الأمن المائي والزراعي والبنية التحتية، مقابل المساحات الصحراوية التي تُعتبر "غير مأهولة مكانياً" رغم توفر مشاريع تنموية فيها (CAPMAS, 2022).

اما في العراق نجد تفاعل جغرافي سياسي مع المكان اذ يظهر في المقابل التوزيع السكاني في العراق تفاعلاً معقدًا بين البعد الطبيعي والبعد السياسي الأمني والعرقي والطائفي, فعلى الرغم من أن نهري دجلة والفرات يقدمان ظروفًا مشابهة للنيل، إلا أن انتشار السكان في العراق لا يُظهر التركز الحاد نفسه, وينتشر السكان في العراق على امتداد نهري دجلة والفرات، ولكن بانتشار متفاوت حسب العامل الطائفي، العرقي ,الأمني، والاقتصادي. حيث تشهد مناطق الوسط والجنوب كثافات سكانية عالية بسبب ندرة الاراضي الصالحة للزراعة او التنافس المكاني للسكن في المدن ذات المراقد الدينية المقدسة (مدينة كربلاء المقدسة, مدينة النجف الاشرف) بينما تشهد مناطق غرب العراق وشماله الغربي انخفاضًا نسبيًا في الكثافة السكانية لسعة انتشار الاراضي الزراعية وإمكانات مائية وفيرة كونهم لا يرتبطون بمجرى الانهار فقط وانما بالمناخ المطري التي تتميز بها اماكنهم, اما العامل الاقتصادي والامني والسياسي فيمثل القاسم المشترك لانتشار السكان في العراق بسبب التغيرات السياسية الغير مستقرة بين الحين والاخر (UN-Habitat, 2020).

نجد في المقارنة لانتشار السكان في البلدين عمق فلسفي لفهم المكان بالنسبة للسكان، ففي مصر تشكل العلاقة مع المكان علاقة تاريخية – ثقافية مستقرة نسبيًا، حيث المكان يُفهم على أنه "الضامن للحياة"، وبالتالي ينعكس ذلك في تركز السكان, اما في العراق يُعاد تعريف المكان بشكل مستمر نتيجة التحولات السياسية والامنية والاقتصادية، مما يجعل نمط الانتشار السكاني غير مستقر ويعتمد على ظرفية التفاعل مع المكان.

وهذا يتفق مع رؤية "ديفيد هارفي" بأن المكان يُنتَج اجتماعيًا، ويُعاد تشكيله حسب العلاقات الاجتماعية والسلطة، لا فقط حسب المعطيات الطبيعية (Harvey, OP cit, 2021, p. 12). فانتشار السكان في المثالين يعكس إدراكاً جماعياً لأفضلية المكان.

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

٣-دور التقنيات الجغرافية والذكاء الاصطناعي في انتشار السكان وفهم المكان

يتجه العالم بوتيرة متسارعة نحو الرقمنة والاعتماد على البيانات, وفي هذا الاطار اصبح من الصعب فهم التوزيع السكاني وتحليل المكان بمعزل عن التقنيات الجغرافية الحديثة والذكاء الاصطناعي فقد أحدث الدمج بين نظم المعلومات الجغرافية (GIS) وتقنيات الاستشعار عن بعد والذكاء الاصطناعي ثورة في كيفية تحليل أنماط الانتشار السكاني على الأرض، وفهم سلوك الإنسان في تعامله مع المكان من حيث السكن، والهجرة، والتوسع الحضري، وحتى التفاعل مع الكوارث البيئية, وهذا ظهر بشكل جلي في العقدين الأخيرين حيث مزجت تقنيات نظم المعلومات الجغرافية (GIS)، والتحليل المكاني، والاستشعار عن بُعد مع الذكاء الاصطناعي (AI)، بما أُطلِق عليه GeoAI. هذه المقاربة أحدثت ثورة في فهم نمط انتشار السكان والتفاعل بين الإنسان والمكان فمثلاً، يمكن اليوم تحليل بيانات الأقمار الصناعية وبيانات الهواتف المحمولة لمعرفة الكثافة السكانية، أنماط تنقلهم، وحتى تحديد المناطق ذات الاستجابة السريعة للبيئة أو التخطيط الحضري (Robinson et al., 2017, 1-4).

ولا بد من الاشارة الى ان هذا التحول لم يكن مجرد تقدم أدواتي، بل حمل معه بُعدًا فلسفيًا عميقًا، أعاد النظر في العلاقة بين "السكان" و"المكان"، وطرح تساؤلات وجودية حول قدرة الآلة على فهم الكينونة البشرية في فضائها المكاني, فبينما توفر هذه الأدوات إمكانات هائلة في رصد التحولات السكانية، وتحليل أنماط الهجرة، ورسم خرائط دقيقة لتوزيع التجمعات البشرية فإنها في الوقت ذاته قد تنزلق إلى اختزال المكان في بُعده الكمي البحت، مما قد يغيب التجربة المعيشة وسياقاتها الثقافية والاجتماعية, ولا يفوتنا ان ننوه ان الذكاء الاصطناعي ولا سيما تقنيات التعلم العميق (Deep Learning) والتعلم الآلي (Machine Learning) التي تُستخدم في تحليل صور الأقمار الصناعية، ودمجها مع قواعد بيانات سكانية تولد أنماط مكانية معقدة، التي يمكن ان تُنتج خرائط استيطان سكاني عالية الدقة في الدول النامية (Yuan, Q., et al, 2020,458).

وفي دراسة حديثة أجراها (Xie, Y., Liu, X., & Chen, Y,et al, 2021,125-139). تم توظيف نماذج شبكات عصبية لتحليل توزيع السكان في المناطق الريفية الصينية بالاعتماد على صور متعددة الأطياف، مما أتاح استنتاجات دقيقة حول علاقة الإنسان بالبيئة والمياه والموارد الطبيعية.

ويلاحظ ان هذا التقدم لم يخلُ من تحديات فقد أشار (Zhu et al) إلى خطورة "التحيز الخوارزمي" في حال عدم تمثيل البيانات لكافة الفئات السكانية، وهو ما قد يؤدي إلى تحليلات مشوهة تُعيد إنتاج الإقصاء الاجتماعي بشكل رقمي, كما أن الاعتماد المفرط على هذه التقنيات دون نقد فلسفي أو نظر اجتماعي قد يُفضي إلى فقدان البعد الإنساني في فهم

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

المكان، وتحويل الإنسان من "فاعل مكاني" إلى "بيانات رقمية" (Zhu, X. X., Tuia, D., Mou, L., et al. 2021,122).

ومن هذا المنطلق تبرز الحاجة إلى مقاربة متكاملة، لا تُقصي أدوات الذكاء الاصطناعي، بل تُعيد توظيفها في ضوء فهم فلسفي للمكان, مكان ليس فقط ما يُقاس ويُحلل رقمياً، بل ما يُعاش ويُفهم في سياقه الثقافي والاجتماعي والتاريخي.

وبنفس الصدد لكن على الجانب الإيجابي تُستخدم تقنيات الذكاء الاصطناعي لا سيما التعلم الآلي والشبكات العصبية لتحليل صور الأقمار الصناعية وبيانات الهاتف المحمول وتقديم تقديرات عالية الدقة لتوزيع السكان حتى في المناطق التي تفتقر إلى بيانات إحصائية رسمية، اذ يمكن استخدام الأقمار الصناعية لتجاوز مشاكل نقص بيانات التعداد, وقد أتاحت هذه التقنيات تحديد الكثافة السكانية على مستوى الأحياء مما سهل على الحكومات التخطيط الحضري وتوزيع الخدمات والموارد.

ومن زاوية اخرى لكن على الجانب السلبي فإن لهذه التقنية وجهًا آخر أكثر تعقيدًا يتمثل في مخاطر التحيّزات الكامنة داخل نماذج الذكاء الاصطناعي، حيث قد تؤدي البيانات غير المتوازنة إلى تقديرات خاطئة خصوصًا في المناطق الريفية أو تلك التي لا تمتلك خرائط رقمية حديثة, كما أن استخدام بيانات التنقل والأماكن المرتادة يوميًا يثير مخاوف كبيرة بشأن الخصوصية، خصوصًا إذا لم تكن هناك ضوابط قانونية صارمة تنظم طريقة جمع هذه البيانات واستخدامها .

واستخلاصاً مما سبق يمكن القول إن فهم المكان في ضوء هذه الأدوات لم يعد مجرد معرفة موقع جغرافي، بل أصبح تحليلًا ديناميكيًا لتفاعلات معقدة بين السكان والبيئة، تدعمه كميات هائلة من البيانات التي يتم تحليلها لحظيًا بفضل الذكاء الاصطناعي, ومع تقدم هذه الأدوات وتأسيساً على ذلك فإن التحدي الحقيقي لم يعد فقط في امتلاك التقنية بل في كيفية استخدامها بشكل عادل وأخلاقي وإنساني يعكس التنوع الاجتماعي ويُراعي العدالة المكانية.

٤ - التغيرات السكانية وتحول المعنى المكاني من الانتشار إلى التشظي (الهجرة)

ضمن إطار تحليل فلسفة فهم المكان لعلم جغرافية السكان لا يمكن تجاهل التحولات الجذرية التي أصابت البنية السكانية في العقود الأخيرة، خاصة في المناطق المتأثرة بالحروب، التغير المناخي، والتحولات الاقتصادية, فالتغير السكاني لم يعد يعني مجرد انتقال أو تباين في الكثافة، بل أصبح يتداخل مع منظومة المفاهيم الوجودية المرتبطة بالمكان، ما بين الانتماء، التذكر، والهوية. إن المكان السكاني لم يعد مفهومًا جغرافيًا صرفًا، بل صار بناءً ديناميكيًا يتشكل ويفقد معناه تبعًا لحركة السكان، وبهذا المعنى يمكن الحديث عن تشظٍ مكاني، الذي يعيد إنتاج العلاقة بين الإنسان والمكان.

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

وفي هذا السياق ترتبط ظاهرة التشظي السكاني بمجموعة من المؤثرات، أبرزها الهجرة القسرية والاختيارية، الكوارث البيئية، والسياسات الاقتصادية التي تعيد هيكلة الحيز المكاني لصالح مراكز جذب محددة على حساب الأطراف, وبهذا تتحول العديد من الأماكن إلى فراغات سكانية تفتقد للتمثيل الاجتماعي والثقافي، مما يؤدي إلى فقدان المعنى المكاني (Loss of Place Identity)، وهو ما عبّر عنه مارك أوجيه بمصطلح "اللامكان" (Non-Places)، مشيرًا إلى المساحات التي تُستهلك وتُستخدم دون أن ترتبط بذاكرة أو انتماء (Auge, 1995, 75-76).

ولا مناص من القول ان هذا يدعونا للتأمل في بعد فلسفي أعمق هل بقي للمكان معنى إن غاب عنه الوجود البشري؟ هل تُعرّف المدن والقرى بحدودها الإدارية أم بذاكرتها الجمعية؟ وهل تقود هذه التحولات إلى محو الذاكرة المكانية وتفكك البنى الثقافية المرتبطة بها؟

من هذا المنظور، لا يمكننا فصل التحليل الديموغرافي عن الفهم الوجودي للمكان، لأن كل تغير سكاني هو بالضرورة تغير في طبيعة الحضور البشري في المكان، وبالتالي في دلالته الرمزية والسياسية والثقافية .

١-٤- دراسة حالة مدينة الموصل من إعادة التوزيع إلى تشظي المكان

اذ تُعدّ مدينة الموصل نموذجًا حيًّا لفهم ديناميكية التحولات السكانية المترافقة مع التغير المكاني، ليس من زاوية الكثافة والنمو وحدهما، بل من خلال فقدان المعنى المكاني وتشظي الهوية الجغرافية بعد الحروب والنزاعات والتغيرات البيئية والاقتصادية.

فبعد سنة ٢٠١٤ وما شهدته المدينة من التهجير الجماعي، والنزوح القسري، وتدمير البنية التحتية والاجتماعية خلال فترة الاحتلال الامريكي وما رافقه من ظهور التنظيمات ارهابية وتخريبية تدعم حالة الفوضى وهي بالمعنى الدقيق انعدام السلطة، تحولت الموصل إلى مدينة متعددة الجغرافيا، مفككة البنية، ومتعددة السرعات المكانية (خلف، ٢٠٢١، ٥٩٢-٥٩٣).

لقد تغيّر التركيب السكاني للمدينة بشكل كبير بعض الأحياء تفرغت تمامًا من سكانها، بينما تحولت أخرى إلى مراكز مؤقتة للنزوح ولم يعد "المكان" فيها حاملًا لذاكرة جماعية واحدة، بل صار يعكس تشظيًا في الانتماء والذاكرة، إذ يشعر كثير من السكان بالانفصال عن الأحياء التي عادوا إليها أو التي انتقلوا للسكن فيها، مما جعل "العودة" لا تعني بالضرورة "استعادة المكان". وعلى هذا الاساس قرر عدد كبير من سكان الموصل البقاء في المناطق التي نزحوا اليها وخاصة المترفين منهم واصبحت مناطق النزوح البديلة مكان استقرار لهم نتيجة لتوافر ظروف الاستقرار والامن , اضافة الى فقدان هوية اماكنهم الاصلية, وتماشياً على ما تم ذكره فان هذا يكشف عن فجوة كبيرة بين المكان كما كان، والمكان كما عاد إليه

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

السكان، حيث غابت الروابط الاجتماعية، وتفككت أنماط الحياة اليومية، وانتشرت مظاهر الإحباط المكاني .

وهذه الحالة الموصليّة تعكس بوضوح أن التغير السكاني – سواء بالانخفاض، التهجير، أو إعادة التوزيع – يُنتج تحولًا في فلسفة المكان, من الفضاء الحي النابض بالهوية والانتماء، إلى فضاء مادي ممزق يُعاد إنتاجه بآليات خارجية (سياسية، اقتصادية، هندسية) دون تفاعل حقيقي مع ذاكرة المكان أو سكانه الأصليين.

وبذلك تُشكّل مدينة الموصل نموذجًا تطبيقيًا لفهم كيف أن التحولات السكانية ليست فقط مسألة "عدد"، بل مسألة "وجود" و"ذاكرة" و"هوية مكانية" قابلة للضياع أو التشوه، وهو ما يجعل إدراك هذه التحولات ضرورة لفهم التحول الفلسفي للمكان في جغرافية السكان الحديثة.

خاتمة البحث :

المكان كمعنى لا كموقع فقط في فهم الانتشار السكاني من منظور إنساني واقعي, من هذا المنطلق حاول البحث أن يقترب من الظاهرة السكانية عبر مدخل مختلف، يتجاوز المنهج الوصفي أو الإحصائي الصرف، ليعيد مساءلة المفاهيم التي تُبنى عليها جغرافية السكان.

ومن بين هذه المفاهيم، يبرز "المكان" ليس بوصفه مجرد إطار جغرافي أو خلفية محايدة لانتشار السكان، بل كـ تجربة إنسانية معقدة، تتداخل فيها الذاكرة، والهوية، والانتماء، والحركة, لقد أصبح من الواضح أن الانتشار السكاني لا يمكن فهمه فقط من خلال خرائط التوزيع أو جداول الكثافة، بل لا بد من النظر إليه كنتاج لتفاعل عميق بين السكان والمكان.

فحيث يختار الإنسان أن يسكن ليس محض صدفة، ولا فقط بدافع الموارد أو الفرص، بل أيضًا نتيجة لعوامل رمزية، ثقافية، اجتماعية، وربما وجودية. فالمكان يُصنع بالمعنى الذي يضفيه عليه ساكنوه، ويُعاد إنتاجه من خلال سيرهم فيه، وكلامهم عنه، وطريقتهم في الانتماء إليه أو النفور منه.

وبناء على ذلك فإن إعادة فهم جغرافية السكان تتطلب استعادة البعد الإنساني للمكان، ككيان يتشكل مع وعي الإنسان به، ويتغير كلما تغيرت علاقته به, فالمكان هو سؤال قبل أن يكون جوابًا، وتحديد السكان لا ينفصل عن فهمهم لذواتهم ضمن المكان، لا فقط عن مواقعهم فيه وعليه، فإن الدعوة الأساسية التي تنبثق من هذا البحث هي ضرورة الانتقال من مقاربات "المكان كموقع" إلى "المكان كمعنى"، ومن الرؤية السكونية الجامدة إلى الرؤية الديناميكية الحية، حيث يتموضع السكان في فضاء مفتوح على التفسير، وعلى إعادة التكوين.

وبطبيعة الحال فجغرافية السكان ليست علمًا للأرقام فقط، بل علمًا للمعنى المكاني، وهي بهذا تستدعي من الباحث الجغرافي أن يكون قارئًا للمكان، قبل ان يكون محللاً للبيانات

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

لهذا المكان, وهذا وحده ما يمنح البحث الجغرافي طابعه الفلسفي التحليلي، ويُبقيه متجددًا في مواجهة عالم يتغير باستمرار, وهذا يضيف للباحث الوعي المكاني وإعادة إنتاج الجغرافيا السكانية نحو رؤية فلسفية معاصرة.

٥- الاستنتاجات والمقترحات :-

أولًا: الاستنتاجات

المحور الأول: تطور المفاهيم ضمن فلسفة فهم المكان وعلاقتها بانتشار السكان

١. تُظهر فلسفة المكان أن المكان ليس مجرد حيّز فيزيائي، بل هو بنية ثقافية-وجودية تتشكّل عبر الذاكرة والهوية والتجربة الإنسانية.

٢. تطوّر مفهوم "الانتشار السكاني" من كونه مجرد توزيع عددي إلى تعبير عن علاقة الإنسان بالمكان وطرائق استجابته لهوية المكان وموارده.

٣. العلاقة بين الإنسان والمكان تحوّلت تاريخيًا من علاقة استقرار وتفاعل إلى علاقة استهلاك وظيفي، ما أضعف الانتماء المكاني في بعض المجتمعات.

المحور الثاني: فلسفة فهم المكان وعلاقتها بانتشار السكان وكثافتهم

١. الكثافة السكانية لا تعكس فقط عوامل اقتصادية أو طبيعية، بل تعبر أيضًا عن تجاذبات رمزية وثقافية بين الإنسان والمكان.

٢. الاختلالات في الكثافة بين مناطق داخل المدينة الواحدة تعكس تفاوتًا في القيم الإدراكية للمكان، حيث تُفضَّل أماكن على أخرى لأسباب معنوية لا فقط مادية.

٣. انتشار السكان يخضع أحيانًا لما يُسمى "الفعل الرمزي"، حيث تؤثر المعتقدات، التصورات، والانتماءات في اختيار مواقع السكن أو العزوف عنها.

المحور الثالث: دور التقنيات الجغرافية والذكاء الاصطناعي في انتشار السكان وفهم المكان

١. وفّرت نظم المعلومات الجغرافية والتحليل بالذكاء الاصطناعي أدوات قوية لفهم أنماط الانتشار بدقة، لكنها تعجز عن تفسير البعد الرمزي والمعنوي للمكان ما لم تُدمج بمقاربات فلسفية.

٢. التقنيات الحديثة تُنتج "صورًا موجهة للمكان" (Spatial Narratives)، قد تؤثر على السياسات الحضرية وتُعيد تشكيل خرائط التوسع المكاني بناءً على معايير رقمية لا اجتماعية دائمًا.

٣. رغم الفائدة الواضحة، إلا أن الاستخدام غير النقدي للتقنيات قد يساهم في تجريد المكان من مناه الثقافي وتحويله إلى نقاط بيانات مجردة.

المحور الرابع: التغيّرات السكانية وتحول المعنى المكاني من الانتشار إلى التشظّي – مدينة الموصل أنموذجًا

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

١. عانت مدينة الموصل من تحولات مكانية حادة نتيجة الحرب والتهجير وإعادة التوطين، مما أنتج حالة من "التشظي المكاني" حيث فُقدت المعاني الرمزية والعضوية للعديد من الأحياء.
٢. التغيرات السكانية بعد ٢٠١٤ أدّت إلى تراجع مفهوم "المدينة الواحدة" وظهور نمط من التموضع الفئوي أو القبلي داخل النسيج السكاني.
٣. المعنى المكاني للموصل تغيّر من كونه مجالًا جامعًا للهوية الحضرية إلى كيان مكسور الهويات، ما أثر سلبًا على الاستقرار المجتمعي والنفسي للسكان .

ثانيًا: المقترحات

١. إعادة الاعتبار للمكان ككيان ثقافي اجتماعي في التخطيط السكاني والحضري، وليس فقط كموقع قابل للاستخدام أو القياس.
٢. دمج المناهج الفلسفية والإنسانية مع التحليل الجغرافي والتقني لفهم الظواهر السكانية بعمق، خصوصًا في البيئات المعقدة كالموصل.
٣. ضرورة تطوير مؤشرات نوعية لقياس الارتباط بالمكان والانتماء السكاني إلى جانب المؤشرات الكمية التقليدية.
٤. تشجيع البحث في فلسفة التحول المكاني لفهم كيف تؤدي الصراعات والتحولات السكانية إلى إعادة تعريف الهوية المكانية.
٥. توظيف التقنيات الجغرافية والذكاء الاصطناعي بمسؤولية، مع تضمين البعد الإنساني في مخرجاتها، خاصة في برامج إعادة الإعمار أو توزيع الخدمات.
٦. إطلاق مشاريع مجتمعية لإعادة بناء المعنى المكاني في الموصل، من خلال الفنون، التعليم، واستعادة الذاكرة الجماعية للأحياء القديمة.
٧. تعزيز الدراسات الفلسفية ضمن علوم الجغرافيا، لا سيما في الجامعات العراقية، لتطوير رؤية تأويلية للواقع السكاني.

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

المصادر العربية :

الحديثي, طه حمادي, (٢٠٠٠). جغرافية السكان , دار ابن الاثير , العراق , جامعة الموصل.

خلف , عبدالله صالح علي, (٢٠٢١) .مظاهر الفوضى في المجتمع العراقي روؤية سوسيو – انثروبولوجية, مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية, المجلد ١٩, العدد ١, الجزء الاول.

رينييه كلوزييه, تطور الفكر الجغرافي،(١٩٨٥) تعريب عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، بيروت.

زهران , محمود حسن . (٢٠٠٣) , جغرافية السكان دراسة تحليلية تطبيقية, الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية .

سلطان , اسماء حمد, كمال عبدالله حسن (٢٠٢٥) , التداخل والتكامل الزماني في الدراسات الجغرافية, مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية, المجلد ٢٠, العدد ١, الجزء الاول.

English Sources:

Auge, Marc.(1995). Non- Places Introduction to an Anthropology of Supermodernity,verso , London. https://www.goodreads.com/book/show/328450.Non_Places .

CAPMAS , (2022). Central Agency for Public Mobilization and Statistic, Statistical Yearbook. Cairo, Egypt. https://www.capmas.gov.eg/Pages/Publications.aspx?Year=23561&page_id=5104 .

Gregory, Derek et al.(2009). The Dictionary of Human Geography, Wiley-Blackwell. https://www.wiley.com/en-sg/The+Dictionary+of+Human+Geography%2C+5th+Edition-p-9781405132886 .

Harvey, D. (2021). Spaces of Capital: Towards a Critical Geography. Routledge,New York . https://www.routledge.com/Spaces-of-Capital-Towards-a-Critical-Geography/Harvey/p/book/9780415932417 .

Harvey, David (1973). Social Justice and the City. London: Edward Arnold. https://books.google.iq/books?id=GJMFBAAAQBAJ&pg=PA3&hl=ar&source=gbs_selected_pages&cad=1#v=onepage&q&f=false ..

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X

Harvey, David.(2000) Spaces of Hope, University of California Press. https://books.google.iq/books/about/Spaces_of_Hope.html?id=W00VHZg3u2MC&redir_esc=y ..

Lefebvre, Henri (1991). The Production of Space. Oxford: Blackwell. https://books.google.iq/books/about/The_Production_of_Space.html?id=SIXcnIoa4MwC&redir_esc=y .

Robinson et al. (2017) , *"A Deep Learning Approach for Population Estimation from Satellite Imagery*" . https://doi.org/10.48550/arXiv.1708.09086

Smith, David M. (1977). Human Geography: A Welfare Approach. London: Edward Arnold. https://www.amazon.co.uk/Human-Geography-Approach-David-Smith/dp/0713159251

Tuan, Y. F. (1977). Space and Place: The Perspective of Experience. Minneapolis: University of Minnesota Press. https://www.upress.umn.edu/9780816638772/space-and-place ./

United Nations Habitat (UN-Habitat). (2020). Iraq State of Cities Report. Baghdad, Iraq. https://unhabitat.org/iraq .

Xie, Y., Liu, X., & Chen, Y. (2021). "*Mapping population distribution using deep learning and remote sensing data in rural China*", ISPRS Journal of Photogrammetry and Remote Sensing. https://www.mdpi.com/2072-4292/13/17/3533

Yuan, Q., et al. (2020). "Deep learning in environmental remote sensing: Achievements and challenges" Remote Sensing of Environment, 241, 111716. https://www.sciencedirect.com/science/article/abs/pii/S0034425720300857

Zhu, X. X., Tuia, D., Mou, L., et al. (2021). "Deep Learning in Remote Sensing: A Comprehensive Review and List of Resources." IEEE Geoscience and Remote Sensing Magazine, 9(1), 52–122. https://doi.org/10.1109/MGRS.2017.2762307

ISSN: 2537-0839 eISSN : 2537-088X